

ارتعاشات القلق الصوفي  
في شعر التجاني يوسف بشير  
نشرت في مجلة سودانية بهذا العنوان  
العبارة الصوفية في شعر التجاني يوسف بشير المجلة السودانية للفنون والآداب  
والعلوم الإنساني " السودان ، 2008

١ / عبد القادر فيدوح – جامعة البحرين

### إن طمأنينة النفس تنبثق من التسليم بأسوأ الظروف

الفيلسوف الصيني لين يوتانغ

#### ارتعاشات القلق وأمانة الإرادة :

لقد شهدت حركة نهضة الشعر العربي الحديث طابعا تجديديا مميزا، ممثلة في ثلثة من الشعراء البارزين على مستوى الوطن العربي من الذين حاولوا التخلص من الضعف الفني الذي ساد أمدًا لا يستهان به في مسيرة الثقافة العربية ، حيث كانت مثقلة بالمحسنات اللفظية المتكلفة، والمعاني المبتذلة، وقد عبر عن ذلك شوقي ضيف في قوله : اقرأ دواوين الشعراء .. من مثل إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ محمد شهاب الدين ، فلن تجد سوى مجازات لفظية قد تدرت بثياب غليظة من محسنات البديع ولن تجد شعوراً ولا عاطفة، لقد تبدلت الحياة ، فجمد الشعر والشعراء. ولم يعد هناك إلا التقليد .. فقد أصبح الشعر حساباً وأرقاماً وتمارين هندسية عسيرة الحل ."

وسعى من شعراء عصر النهضة إلى التخلص من الأساليب القديمة ، كان عليهم أن ينطلقوا من الاهتمام بشعور المرء بذاته ، بوصفها حالة اجتماعية في دلالاتها المنشودة ؛ الأمر الذي استجلب معه نمطا جديدا من اللغة الشعرية ، المفعمة بالصور الحيوية، في سعة أفقها المترامية الأطراف . ولعل في ذلك ما عزز مكانة الثقة بالنفس، وكلما كان ذلك كذلك كان في الوقت ذاته عامل اليقين منصبا على الإبداع بروح تلقائية،

على نحو يطمئن ذات الشاعر، مع الاعتقاد بصحة المأمول في رؤاه المرتبطة بالتجربة الفنية ذات التوتر الروحي، حيث التوحد بالأحوال مع المأمول؛ الأمر الذي " يخلق صورة جيدة للعالم من جديد، كما يتجدد الرحم بالولادة ، فهي تمثل بكاراة العالم ، فحين يضيق الرائي بالعالم المحسوس ، لأنه عالم الرتابة ، وينشغل بعالم الغيب ، الذي هو مكان التجدد المستمر ، تكون الرؤيا كشفا ، حيث تكشف عن علاقات بين الأشياء تبدو أمام العقل متناقضة، وهي إبداع ، والإبداع قد يكون كشفا لم يعرف بعد، وقد يكون تأليفا جديدا لأشياء معروف : شريطة أن يجيء التأليف شكلا لم يعرف به . وحين تصبح الرؤيا كشفا ينظر الرائي إلى العالم بعين خياله، لا بعين رأسه . لذا وجدنا التجاني يوسف بشير يعي ما يمكن تجاوزه بعين الرأس ، حين رأى في الكائنات أنها محكومة بصورة الذات في مستوى خلق الكون الذي توجهت إليه العناية الكلية بعين القلب ، وليس هذا غريبا على شاعر تبدت في ملامح مرآة قطرات " التأمل في الآفاق، بوصفها مدارك مأمولة :

قطرات من الندى رقراقة	يصفق البشر دونها والطلاقة
ضمنتها من بهجة الورد افو	ف ومن زهرة القرنفل باقة
نثرت عقدها أصاب من نر	ر ترسلن خفقة وأناقة
رب وشي نمقن في صفحة الور	د ونضرن في الربى نماقه
ومصاييح أسرجته يد الش — —	س وضاء في زهرة خفاقة
يتقطرن أنجه في أكاليل	من الزهر أسرجت أوراقه
وأفاق الضحى عليها وقد ر	ت أزاهيره وندت رواقه
تلك مطلولة وهاتيك سد ي	من ندى دافق وخمر مراقبة
وهي براقاة الضفاف ومرمم	قة بيض اللآلى البراقه
نفضتها في الدهر أجند الأ — —	لاك تلك الرفافة الصفاقة

<sup>1</sup> ينظر ، أدونيس : الثابت والمتحول ج ١ " صدمة الحداث " ، دار الفكر ، بيروت، ط ١ ، 986 ، ص 66 ، ينظر أيضا ، سهير حسانين : العبارة الصوفية في الشعر العربي الحديث، دار شرقيات، ط، أولى 000 ، ص 27

فأصابته فيم أصابته فتي نقرن	أوتاره	وهجن اعتلاقه
إر تردت في غائر من أمانيه		وندت من الهوى أعراقه
واستقلت بأصغري .. فكم		قومن أضعافه وانهضن ساقه
شاخصاً مازال يعزف ما شاء		علي مزهر الندي أشواقه
كلما لج في الذهول أطباه المز		هر الرطب في يديه فشاقه
بعض اندائه فيوض من النر		ر ونبع من قوة خلاقه
لفها في الصبي وأضفي عليها		عبقري المطارف الرياقه
فهي دفق من عالم كله قلب		خفوق ولوعة دفاقه
عالم الجمال والحسن ودنيا		الحب والقلب وجده واشتياقه
يتحدرن من مفاجي " أيا	مي ومي و مدامعي الرقراقة	
ويرجعن في مفاتز دني	ي صدي يزحم الهوي ابواقه	
في مساب الندي وبين زراعي	زهرات الرببي من الشعر طاقه	
افلتت من هدي النواظر واست	رت بصمت تلهه اطراقه	
جف من حولها الأريض ونا	العطر في مهده وأخلي في مساقه	
وهي ريانة تمد قطاذا	من جني كم ذا طعمت مذاقه	
من دمي يستدرها أنفاسي	لهيباً أسميته إشراقه	
قطرات من الصبا والشباب	الغض منسابة به منساقه	
ورهام من روجي الهائم ال	لهان امكنت في الزمان وساقه	
ظل يهفو إلى السماء ويشكر	لوعة الروح ها هنا واحتراقه	
يتحدرن من معابد " أيا مي	حنيماً أسميته إشراقه	
قطرات من التأما حيرى	مطرقات علي الدجى مبراقه	
تسترسنلن في جوانب آذ	قي شعاعاً أسميته اشراقه	

لعل ما يميز قصيدة ' قطرات ' هو المجاز في متواليات الصور ، بناء ودلالة، وهو ما نستشفه من خلال وضعه المنكسر الذي تعكسه معظم قصائده الداعية إلى نداءاته التي لم تجد صدى من يقظة الضمير، وفي ذلك ما يبرر توسع مدى التجاني يوسف بشير بالسماة المميزة التي منحتها له نسمة الحياة الطافحة بالترجي، فيما لا وثوق بحصوله من هذه الحياة التي قست عليه، وبما كان يشعر به في أعماق كيانه ، فوقف عاجزا أمام كل

ما يعترض سبيله، وعلى معرفة حقيقة وجوده على هذه الصورة دون تلك التي منحتها القوانين الإنسانية والطبيعية التي منحها لغيره كي يتحد مع ذاته ، ومع من حوله . وليس أدل على ذلك من عنوان القصيدة نفسه ' قطرات ' في إنتاج دلالاتها الموحية بتوالي القطرات ، عليها تغمره من فيض نداها الرقراق . لذلك جاءت ' قطرات ' بحمولاتها الرحمية في صور متعاقبة ، تسهم في إنتاج باقي المجازات المولدة لتوضح معضلة الكوني الزائف والباطل ؛ الأمر الذي أدت به تصرفاته إلى أن ينجر إلى القنوط ، وأن يشعر باليأس والإحباط .

ومن تلك المشاعر يجد الشاعر نفسه في عَسْفٍ، بما انتال عليه من مفاوز ، ومجابتها بغير قصد ولا هداية ، وأصبح يخفق إلى حياة مفجعة من حرقة الحزن التي تعبر عنها ظلال المعاني المبتوثة في ثنايا قصائده التي تطل علينا بنبرة تنتهد من قلب كلیم ، تتوجس بصوت حزين قلقة العميق ، كما في قوله مثلاً :

خفوق ولوعة دفاقه

فهي دفق من عالم كله قلب

...

مي ومي و مدامعي الرقراقة

يتحدرن من مفاجئ " أيا

وقوله :

مزهري الندى أشواقه

شاخصاً مازال يعزف ما شاء

هر الرطب في يديه فشاقه

كلما لج في الذهول أطباه المز

ماذا تعني الحياة بالنسبة إليه وهو من يئن من عبئها، وما تحمله من ثقل تبعاتها التي أثقلت كاهله، أمام هذه المفارقة لم يجد نفسه إلا في مواجهة فقدان حقيقة مغزى وجوده ، كونه مجرداً من كل معايير الإنسانية ، التي حرمتها من نعمة الحياة على نحو — يفترض أن — يتوازى فيه مع غيره، وهو ما جعله يشعر بضالة قيمته لولا الحقيقة في طلب الممكن عبر مسار وتر ندى الأشواق، ونزوع الذات فيما استوقد شوقه إلى صفاء هذه الذات من صدأ الواقع الكليم ، وما أصابه من نزيّة في نفاذها الدائم، مما أدى إلى تعميق الجرح في الحد من معالم طريق الإرادة، نتيجة وفرة شرور البلاء في المتضادات

المنهالة عليه كوابل من الرزايا، ولعل ما رسمته قصيدة " دنيا الفقير " من لوحة درامية،  
أثارها الظروف المحيطة به، دليل على ما رسمته الحياة من كآبة مضمينة ، فلم يجد بدا  
من مخاطبة زهرات الخريف للبرهنة على وشك النهاية :

تعالى معي زهرات الخريف	إلى	الكوخ أفلت منه الربيع
ومر به غير مستحب إليه		سوي زفرة من دموع
وما كان ينفذ منه العبير		ولكن شحاً أصاب القنوع
تعالى نعطرت ثياب الفقير		ونمسح مآسي عبر الربوع
بنفسي من هان . ء تو		ضع في نفسه كل معني رفيع
ه ؛ خاشع الطرف رث الثر		ب كئيباً كثير مرأى الخنوع
تأكله حسرة في الضمير		وتسحقه خيبة في الضلوع
يبين عليه انكسار الفؤ		د ومسكنه المستذل الوضع
وفي نفسه ظماً للعطور		وفي روحه حرقات وجوع
ينام . ء وله بالثراء		ويصحو علي نسمات الهزيع
فيرفع كفيه نحو السماء		ويضرع واهاً له من ضريع
وماذا يقول : الهي الكفاف		ويردفاها بالبصير السميع
ويمسح في وجهه راحا -	ه ويغضي : أو رد ؛ أو خشوع	

لقد ترك الشاعر مقولات الوعي بالنهوض في مواجهة الواقع المرير ، واستسلم  
لمعطيات طالع كفه، وكأنه منقاد إلى قدره المحتوم ، ومذعن له ، كما ترك لنصيبه حرية  
فعله في اتخاذ ما يريده القضاء والقدر، والتعامل مع الأمور كما هي ، امتثالاً لمقولة  
الفيلسوف الصيني لين يوتانغ : إن طمأنينة النفس تنبثق من التسليم بأسوأ الظروف " وفي  
مثل هذا الوضع لم تكن مساعي التجاني يوسف بشير إلى الإسهام في النظر إلى الحدود  
المفروضة ، بقدر ما كان ينظر إليها فيما يفرضه حضوره المتناهي في هذا الوجود إلى  
الحدود الممكنة ، كونه معرضاً لخطر الشقاء الأبدي ، كما في قول :

تأكله حسرة في الضمير                      وتسحقه خيبة في الضلوع

لقد كان الشاعر غيبية في حضور ، ملاء الضنك ، وهشمه الأسي ، والضيق من كل شيء ، كما استضام الواقع حقه الطبيعي في الحياة ، وانتقصه إياه ، سواء أكان ذلك بفعل واقع الحال ، أو من دون إرادة منه ، فكانت حصيلته المتناهية ما لبث أن سقط رهن الاستسلام كالورقة الصفراء بعد أن ساء حاله وذاق مرارة الحياة ، فأصبح ذابلاً ، كما في قوله :

### هي قسطي من السماء فما أضيـع في العالم الترابي قسطي

وهو إن كان يشكو من قسوة الحياة عليه بعد أن أصبح في حال تتوجع لها القلوب عطفاً ، وتنفطر لها النفوس رأفةً ، وتسيل لها الدموع شفقةً ، إلا أنه كان مترفعاً عن السؤال ، بنفس أبيية ، معبراً عن ذلك في قوله :

أنا وحدي استصرخ العدل فيـكم وأحيي القضاء في إنسانه

ما إلى الرفد قد مدحت وما مثل قناتي تلين من لمعانه

عمر ملاي ما أطباني سحر المال يوماً لرغبة في اختزانه

وأنا الم . من عرفت إباء وعزوف عن ذل وهوانه

إنه يرفض أن تلين له القلوب ، متظاهر أنه لا يتصدع بما أصابه من انهيار ، وهو من يحمل قلباً جلوداً ، وهو ادعاء استنكاري يتمس له من الأسباب ما يجعله سائغاً مباحاً ، أو يبرر عن احتجاجه ، واستقباحه لما يحدث له ، وكأن لا همّ يعترض سبيله ، ولا غمّ يسيء حالاً ، بعد أن رمت الحياة بجلاميدها ، وثقلها على كاهله حملاً ثقيلاً ، وألقى الزمان عليه فقراً مدقعا ، فتسلطت عليه شدة المهانة ، ومع ذلك لم يرض بالمذلة كونه يرى نفسه عزيزاً ، يطاول بالكبير الذي ورث مجده كابراً عن كابر " ، على الرغم من التصاق الفقر به حيث " عاش التجاني فقيراً .. كغالبية الشعب السوداني — حينذاك — وليس في هذا ما يعيب ، وقد كان لهذا الفقر أثر واضح في شعره ، فهو .. في بعض

قصائده يضيق تارة بهذا الفقر ، وتارة يفلسفه ويفتخر به ، ويشيد بعظمته ، ويشن حملات عنيفة على الثراء والمثريين، .. وبعبارة أخرى ، فإن الفقر هو مفتاح شعر التجاني<sup>1</sup>

يشعرك الشاعر في هذا المقطع أن للوحدة طريقا في التفرد بذاته لمعايشة الألم والحسرة ، وان للغربة مكانة تتخذ سبيلها إليه في كل آن، فامتلاً شعره بمعاني الغربية النفسية بعد أن شعر بالوحدة، وعششت فيه الوحشة والأحزان، في هذا العالم الموبوء، حيث لم يجد فيه استقرارا ، وخال من العدالة والتكافؤ، حين وجد العدل لا يشاركه حظه ، ولا يتعامل معه بإنصاف ، فأخذ روحه إلى الاستصراخ وطلب الاستعانة ، ولكن من دون جدوى ، بعد أن تخلى عنه القدر ، وخلق سبيله إلى سوء الطالع ؛ لذا أثر الانطواء ، وانكماشه على نفسه ، لينسي به همومه في ميله إلى العزلة، والرضا بالخلوة ، والقناعة بالشدة والعسر .

لعل القارئ عندما يقرأ شعر التجاني يوسف بشير يرى أن القلق سمة غالبية عليه ، تؤكد لها الصور الدالة ، المعبرة ، عن وضعه ، سواء أكان ذلك من خلال روح النص في معنى كلماته ، أو فيما يتضمنه مخبوء هذه الدلالات من معان مستورة، تشكو قلقه من الحياة ، ومع ذلك فإن كلماته تأتي مفعمة بالبرقة :

إنها ثورة الحياة فمن للكون -- يحميه من قذائف رعن  
إنها ثورة الشباب يبسا مراعيه -- وما كالصبا أقر لعيني  
يفرح الطين في يدي فألهو -- جاهدا أهدم الحياة وابني  
كم أشيد الحصى قصورا وكـ -- أكبر من شأنها وأقدر شأنى  
وطنى في الصبا الدمى والتماثيل -- ونفسى ومن احب وخذنى

لعل مشكلة التجاني يوسف بشير تكمن في المؤشر السلبي لمقاومة الحياة ، والحاجة إلى التغلب عليها ، ونظرا إلى فرط نظام التفكير السوداوي ، فقد قوة الحماية والتحفيز نحو الفعل المقاوم . ولا ريب في أن هذا جرّاً عليه تثبيط العزيمة ، وإضعاف الإرادة ، مما جعله حبيس النظرة السوداوية في مقابل النظر إلى الحياة في بعدها الطبيعي ، بكل

<sup>1</sup> هنري رياض : التجاني يوسف بشير [شاعرا وناثر طار الجيل ، ط 2 982 ، ص 70 - 1 .

ما تحمله من إيجابيات وسلبيات . ذلك أن الحياة ميل ، ونزوع داخلي يجذب الإنسان بطبعه إلى تحقيق مساعيه إلى كل ما هو محتمل تحقيقه ، ولهذا يشعر الإنسان بنفحات عطية الحياة عندما يجني ما تجود به ثمراتها، وفائدتها ، كل بمقدار نصيبه منها . وإذا وجب أن تكون هذه الثمرة محفزا لنا في الشعور بنشوة الكسب ، فمن الضروري أنها ترغبتنا في طلب المزيد ، وعدم الانصياع إلى إفرازات نظام التفكير الكثيب، وهذا ما حدث للشاعر بعد أن ألمت به السوءاء، وانتابه القلق .

إن ما يميز شعر التجاني هو القلق المغلف بغلاف الإيقاع المنكسر من نبع ما يكتنه عالمه النفسي ، وهو إيقاع يغلب على قصائده المائجة في تموجاتها المضطربة ، ولكنها تومئ إلى دفين مستور بحكمة تعبر عن تجربة ضاربة في عمق الحاجة الإنسانية عند اقتضائها طلب الشيء، وعلى الرغم من صغر سنه إلا أن حكمه تحمل نداء تأمليا محتدما، من شدة الغيظ ، برؤى أفكاره المنبتقة من حسه المفعم بالفزع من اللاجدوى، في سعيه المتواصل، حين لاحت في عينيه نظرة مذعورة من المستقبل الغامض في ضوء معطياته المربكة التي أوقعته في حيرة واضطراب أمام بصيرته المشدوهة ، ولم يعد يقدر على التخلص منها، ولعل في ذلك ما يعبر عن تعبيره العفوي المناسب لوضعه المرهف الذي أفصحت عنه الجزالة الأسرة في صورته الشعرية المبطنة بتلميحات لمعانٍ غير مصرح بها في كثير من الأحيان ، وكأننا به يمدنا بتجربة في النظر ، والتأمل في الشيء ، أكثر من إبانته تجربة الواقع الملموس، وهو تعبير كثيرا ما يلتقي إلى حد التماس مع الصوفية التي تستغرق بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمس ، وذلك حين عوض وجوده المعمول بوجوده المأمول الذي يمكن النظر إليه في جميع مشتقات النظرة التأملية ' بوصفها الأشعة التي يقبلها الإنسان ويضيء بها وجوده . والإنسان ليس إلا النور المتجلي في الوجود باعتباره جزءا من الكل . ومدى إشعاعه في الوجود هو سره الحقيقي ، أو سر وجوده ، وعلى قدر أنواره تتنوع أسرار الوجودي . وفيما لو جرى تخصيص هذه الفكرة في مجال الإبداع ، فليس نوره سوى إبداعه . وإبداعه سر وجوده المادي والمعنوي ، وكله الذي يمثل أقصى ما يستطيع بلوغه في ذاته ، وكل ما يحدد في نفس الوقت تذليل القناعة



الرخوة بقناعتها، وإخضاع الشكوك ليقين البحث المعرفي " ، وإلى هذا المعنى نلمس بعضاً من حقائق صور شعر التجاني بوصفها تجربة في النظر المعبر عنها بطرائق التعبير اللغوي المنزوع من تأمل مسار الإرادة بالكشف عن الحقيقة ، ومن ثم فإن علاقة التجاني يوسف بشير بذاته علاقة تأملية مشوبة بالقلق ، ومختلطة باليأس والريد :

أنا وَحْدِي كُنْتُ أُسْتَجَلِي	مِنَ الْعَالَمِ هَمْسَهُ
أَسْمَعُ الْخَطَرََةَ فِي الذَّرِّ	وَأَسْتَبْطِنُ حِسَّهُ
واضطرابَ النُّورِ فِي خَفَقَتِهِ	أَسْمَعُ جَرَسَهُ
وَأَرَى عَيْدَ فَتَى الْوَرْدِ	وَأَسْتَقْبِلُ عُرْسَهُ
وَأَنْفَعَالَ الْكَرَمِ فِي فَقَعَتِ	أَشْهَدُ عَرَسَهُ
رَبِّ سُبْحَانَكَ إِنَّ الْكُونَ	لَا يَقْدِرُ نَفْسَهُ
صُغْتَ مِنْ نَارِكَ جَنِيهِ	وَمِنْ نُورِكَ إِنْسَهُ

إن وعي الذات وإدراكها همومها نابع من التكامل الذي يستمد آليته من التطور الذاتي، الداعي إلى الخلاص من وعي الخارج ، والساعي إلى الهروب من مهاميز الواقع الكليم، لذلك رمى الشاعر بثقله إلى كل ما يدعوه إلى التأمل في حقائق الكون من خصوصية معرفته بذات الحق المتجلية في ذات الخلق، حين استبدت به غائلة العوز إلى طلب السؤال ، وهو سؤال تأملي بغرض الوصول إلى مرفأ الأماز :

أينا لو عدلت يكتنز العا لم في صدره وفي تفكيره ؟

2. أينا يزحم الوجود جناحيه وتـ مشي الحياة بين ضميره

أو كما في قوله :

3 يا موكب النور أين أفضى بك الطريق الذي سلكته ؟

<sup>1</sup> ميثم الجنابي : حكمة الروح الصوفي ، دار المدى ، ط ، 001 ، ص 177

<sup>2</sup> إشراقه ، ص 65

<sup>3</sup> إشراقه ، ص 141

وليس غريباً ، ولا مستبعداً ، أن يكون التجاني يوسف بشير متأثراً بما ساد من صراع دائر في الحركة الثقافية في حينها بين أنصار طه حسين وخصومه ، حين مثل كتابه في الشعر الجاهلي ' صداماً حقيقياً رجزته مواقف عميد الأدب العربي طه حسين المثيرة للجدل ، بعد أن تحوّم بهالة من الشك . وقد يكون الأمر نابعا من وعيه الإبداعي المستند إلى قلقه الفكري في تفسير علاقته بالكون، واضطرابات النفس الناجمة عن الضياع الذي أفرزته تجاربه التي رأى فيها أنها لا تنفصل عن مبررات الكون وقدره؛ لذلك استمر الشاعر في مناجاة نفسه بوصفها دليلاً على حقيقة الوجود، وبرهاناً على قيمة الخالق بحسب قوله :

سبحانك الله	ز - -	سّ كلها عطف ولين
وتر من الناي المق		س من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعر		ر وطهر واضحة الجبين
من كل سحر في الوجد		د وساحر في العالمين
من مهبط الروح العز		يز وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حر		أبدأ علي مر السنين
هي تلك نفس ؤ أف		م بها علي حرم الفنون
نفس موزعة المش		عر كلها أبدأ عيون
في كل رابية تن	ت - -	ب عن سنا الأمل الدفين
....		

وقفت تتمتم للإل		ه بما تقدس أو تدين
تستلهم الأدب القو	م - -	م وتسمع الوحي الرزين
لله أيتها الوديع	ة - -	قد تشط بك الظنون

نب والدج شرس حرون  
لع وتسبق القرون

الفجر ملتهب الجو  
يتزاحمان إليا في ا

ومن هنا يمكن تبرير موقف التجاني يوسف بشير، وإيغاله في أدغال الشك الناجم عن القلق الذي ترجعه الفلسفة إلى نسق المنهج التساؤلي، فسواء أكان الشاعر اعتقاديا في شكه، أو فلسفيا، فإن رؤاه تبقى على وجه الإبداع معروضة للدققة الشعورية بطريقة طبيعية، والومضة الشعرية، في نبضها الإبداعي، كما أنها تشكل موقفا نابعا من انطباع تعريج ما رسمته الحياة من تجاعيد الشعور بالأسى، وكأنها تحكي عمرا مديدا. والشاعر في هذه الحال يستجيب للوعي المتصل بالراهن، بل بالحياة، ليرسم واقعا افتراضيا، يبحث فيه عن حال أخرى، من قبل التساؤل الذي يستقيه من قواه الإدراكية المنقوصة في الحقيقة الواقعية في مقابل رسم الحدود الممكنة، وهي الصورة التي يكرسها الخيال الشعري في التماهي مع اللانهائي الروحي، ولعل هذا ما سعى إليه المتصوفة في أثناء بحثهم عن صيغة التوحد مع الروحي / المطلق في نهج سلوكياتهم.

وإذا ما رجعنا إلى التمعن، وإعمال الفكر والتأمل فيه، في حال التجاني يوسف بشير وجدناه منصهرا في الوجود المأمول عوض الانصهار في الوجود المعمول، ونعتقد أن ذلك ما كان له أن يتم لولا تساؤله الملح، بنظراته الاستفهامية، عن مضرب السمو الذي من شأنه أن يتمثل به، ويسبغ على تأمله مضمونه "الوحداني"، وتزرع فيه صيغة البحث عن مستوى فوق المستوى العادي، انطلاقا من أن كل شيء مستتير في نظر الشاعر من قبيل التساؤل المفضي إلى الكشف عن وحدة الذات وإعادة تجسيدها بما يتناسب مع مقامات الحقيقة وأخلاقيات الروح، إلى حيث تتجلى تلقائية اليقين المعرفي " فالعارف لا يعترف بقدسية لغير المعرفة اليقينية. إذ يجد في حيرته أيضا حق اليقين. فقد اضطر ذو النون المصري، على سبيل المثال، أن يقول: إن [ أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه ] بينما حصر سهل التستري غاية المعرفة في الدهشة والحيرة. ولم يعن ذلك

تشابه آراؤهما ، بقدر ما يعني اشتراكهما في تذليل هذا التباين على اساس وعي تجربة  
المقابل بمقدار ما يتحمل استعداد المجرب<sup>1</sup>

إن الشعر ليس من مهمته اكتشاف الحقيقة — شأنه في ذلك شأن الفلسفة — أو  
البرهنة على مبررات حدوث الوقائع ، بقدر ما يسعى إلى خلق وجود أسمى يتوافق مع  
ومضات الشاعر التأملية . وإنما لندهش، وما أيسر ما تدهشنا — وبشيء من الأسف —  
بعض الأحكام المائلة عن جادة الصواب عندما تفسر النصوص الشعرية النابضة بالقيم  
الفكرية — خاصة — بشيء من التبسيط ؛ ذلك أن كل تبسيط فيه تسطيح، وكل تسطيح فيه  
استخفاف بتمثيلات الصور الشعرية بالقياس إلى معايير الشعر التأملي ، المتضمن سؤاله  
في مستور صورته تضمينا للمعنى الخفي .

ولكن ، ما معنى أن نبرر لسؤال الشعر ؟ أو تسأول الشاعر ؟ . معناه أن الشعر  
يقاظ صرخ الخفاء ، ولن يكون ذلك إلا بأنابيش المستور واستثارة أعماقها ليخرج الشاعر  
ما يريد بيانه من رؤى تتضاعف بمدى قدرتها على قابلية الوصول إلى النمط الأعلى  
للمسعى الإنساني . ومن ثم يخطئ من يعتقد في صورة الشعر غاية في ذاتها ، أو أن  
الشاعر مماثل لذات السوي في رؤاه ، بل على العكس من ذلك إنه يعيد بناء منتجات  
الحياة بالكشف عن أسرار المستور، على نحو ما ورد من الشاعر التجاني يوسف بشير  
في قصيدة ' كذلك الحب ' مثلا :

تجري مع الحب إلى غاية خبيئة ... كالعطر في ورده

...

وأنت يا من ذقت طعم الهوى      من سحر عينيه ومن خده  
عيناك هاتار . وقد صيغتا      من كبرياء الحسن أو مجده

<sup>1</sup> ميثم الجنابي : حكمة الروح الصوفي ، دار المدى ، ط . ، 001 ، ص 147

من هادئ السحر ومحتدّه  
مخالق الكون ولم يبد<sup>1</sup>؟

عيناك هاتار . وما فيهما  
كمضمر سرّاً ومن بينه

---

<sup>1</sup> إشرافه ص 135 - 36 .